كتاب الذاهبين

رائد وحش

شعر

براءات المتوسط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حقوق النسخ © 2022 منشورات المتوسط - إيطاليا.

حقوق التأليف © 2022 رائد وحش

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Kitabu Al-Thahbin *by* **"Raed Wahesh"**
© **Almutawassit Books** / © 2022 by Raed Wahesh

المؤلف: رائد وحش / عنوان الكتاب: كتاب الذاهبين
الطبعة الأولى: 2022.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-80738-14-1

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204.
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سُكَّانُ القرنِ الحادي والعشرين،

كما سُكَّانِ القرونِ كلِّها

أبناءُ أيُّوب

أكثرُ من كونِهم أبناءَ آدم!

https://t.me/Post_horizon
اهداء التصوير: لشهداء غزة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحقيقٌ استقصائيٌّ حولَ الريح

١

أأنتِ مَنْ لفحتْ وجهَ الراعي في القصَّة المدرسيَّة
أم مَنْ قَوَّضَتْ أركانَ سَدُوم وعَمُورة
أم أنتِ الشخصيَّةُ الحاسمةُ
التي صَنَعتِ الأرضَ والسماء،
في قصَّةِ الخَلْق؟
ألكِ عُمُرٌ تموتين آخرَهَ
أم لعلَّكِ استأثرتِ بالأبديَّة
وتركتِ لنا التلهِّي بالقصصِ عنها؟
مَن أنتِ؟
ماذا تبتغين؟
هل أنتِ مَنْ سألتُهَا قبلَ دقائق
أم أنَّكِ ريحٌ أُخرى،
يا ريحُ؟

٢

لأنَّها رافقتِ الأجسادَ أكثرَ من ملابسِها، أكثرَ من أوراقِها وريشِها وصوفِها، أكثرَ من عُريِها؛ مثَّلوا بكِ

الروحَ حين توصَّلوا إلى العبادةِ، وبعد قرونٍ من الصلواتِ والقرابينِ لآلهةٍ لا تجيدُ الطيران، خفَّفوا حِدَّة المفارقةِ، وأضافُوا إلى أصنامِهِم أجنحةً.

كلُّ ما يحدثُ تقليدٌ لها: المشيُ والركضُ، الغدُ، الأغاني .

لا شيء خارجَها

لا شيءَ مِن دونِها.

ليست كتاباً، وإلَّا لِمَ لَمْ يأتِ قُرَّاؤُها؟

ليست طعاماً، وإلَّا لِمَ لَمْ يَلتهمْها الجَوْعَى؟

ليست مسرحاً، وإلَّا لِمَ لَمْ نقوَ يوماً على الرقصِ فوقَها؟

هي البرهانُ،

لم ترفعِ السماءَ على أكتافِها

فالسماءُ، وكذلك الأرضُ ونحن،

ظلالٌ تحتَها.

هي الميزانُ،

ما من أشياءَ تعادِلُها في الموازين: الماءُ يَأسَنُ، يهرُبُ، يجفُّ .. حين تقرِّرُ وَصْلاً أو صَدّاً. النارُ أقلُّ من أن تُوضعَ إلى جنبِها، فلولاها ما اشتعلتْ بين الأيدي شرارةٌ. الترابُ عَبدُها المأمورُ، ينتظرُ أن

تمدّهُ بالماءِ أو بالنارِ، أو بهما معاً، ليصيرَ مساكبَ للخضارِ أو حجارةً، أحياناً تنثرُهُ رمالاً على مساحاتٍ سرِّيَّةٍ لجنونِها، تُسمِّيها الصحراء.

أجمعُ أقوالاً فيها:

- أين تنامُ؟

- نحنُ سريرُها.

- ماذا تأكلُ؟

- تُفطِرُ أحلاماً، وتتعشّى كوابيس

بينهما تتحلّى بأحلامِ اليقظة.

- أين تعلّمَتْ؟

- في انفجارِ الكواكب.

- هل تزوَّجتْ؟

- لا ندري!! لكنَّها، بكلِّ تأكيد،

تترمَّلُ كلَّ يوم.

٣

في برِّيَّةٍ، يتسيَّدُها راعٍ صغير، يُلاعبُ خِرافَهُ، توقَّفتُ أسالُهُ شربةَ ماءٍ، فَمَدَّني بها، وفي لحظةِ زهوٍ بريءٍ، عرضَ عليَّ مخطوطةً، وجدَها في خرائبَ عندما راحَ يبحثُ عن أعزِّ حِملانِهِ.

قال الفتى: «لستُ بقارئ،

هلّا تَلوْتَ عليَّ هذي الصحائف!».

يروي الكتابُ القديمُ الوقائعَ الأخيرةَ في مدينةٍ تنتظرُ غُزاةً، كتبَها شيخٌ بمنطقِ الشاهد.

يروي الكتابُ القديمُ حَمْلَةَ الضرائب، شرعَ فيها جباةُ الوالي لتجهيزِ جيشٍ، يواجهُ الغازين خارجَ أسوارِ المدينةِ، لكنَّ الجنودَ الذين لم يصمدُوا أكثرَ من ساعةٍ في المعركةِ عادتْ أجسامُهُم قذائفَ من مَنْجَنِيْقَاتِ الغُزاة، وفيما راحَ الأهلُ يجمعون أشلاءَ أولادِهِم من سطوحِ البيوتِ، هَرَبَ الوالي وأعوانُهُ بما استطاعُوا من ذَهَبٍ وخيول.

يروي الكتابُ القديمُ، بأخطاءَ كثيرةٍ، لشدَّةِ ذُعرِ كاتبِهِ، كيف انفتحتْ بوَّابةُ المدينةِ، ودَلَفَ الجيشُ الغازي، ليَحرِقَ دكاكينَهَا وأسواقَهَا، ويأخذَ سُكَّانَها أسرى.

يروي الكتابُ القديمُ خطبةَ السلطانِ الجديدِ المَلأى بالوعودِ والآمالِ، بينما جنودُهُ يبيعون الأسرى جرعةَ الماء.

في هامشٍ، خَطُّهُ مختلفٌ، أضافَ شخصٌ ملاحظةً عن موتِ الشيخِ، صاحبِ الصحائفِ، بعدما صَعِدَ إلى مِئْذَنَةِ مسجدِهِ، ليدعوَ ربَّهُ إرسالَ الرحمةِ للضعفاءِ، فجاءَ الجوابُ على الفورِ صخرةَ مَنْجَنِيق،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قَصّتْ قامةَ المِئذِنَةِ، ودفنتْهُ تحتَ رُكامِها.

بكى الراعي الفتى

قال:

«هذهُ حكايةُ جَدِّي

سمعتُها مراراً

ولم أكنْ أعرفُ أنني أحملُها

طَوالَ حياتي

في جِرَابِي».

ومضى راكضاً إلى الأُفَق

كي يصرخَ به كما يليقُ بالرعاةِ.

في هامشٍ آخرَ، وبخِطٍّ لا يُشبهُ سابقَيْه، قرأتُ قصّةَ المجنونةِ الحُبْلى.

كَتَبَ صاحبُ الهامشِ:

«منذُ فقدتْ عقلَهَا، تطوفُ الشوارعَ صارخةً:

الريحُ دائرةٌ، ترسمُ نفسَهَا هبوباً، يدورُ على هبوبٍ

الدائرةُ مركزُها الصوت

محيطُها الصدى

وفي دورانِها تتناسخُ دوائر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقتلعُ اللغاتِ من كلِّ ناطقٍ:

الناسِ، البهائمِ، الطيورِ، الأنهرِ ..

لتحيلَها كتماناً، لا مَلمَحَ فيه

لا معنى له

سوى الصفيرِ».

كَتَبَ صاحبُ الهامشِ:

«شُوهدتِ المجنونةُ عاريةً، تفتح ساقَيْها على صخرةٍ، يتقاطعُ فيها مسارُ الهواءِ بين جبلَيْن، وظلَّتْ تُسلِّمُ نفسَها لهواءٍ، يُداعبُ أحشاءَها، ويَدخُلُها حتَّى انتهتْ حُبلى».

كَتَبَ صاحبُ الهامشِ:

«كَبُرَ بطنُها، كَبُرَ حتَّى لم تعدْ تَقوَى على حَمْلِهِ، فجلستْ منفرجةَ الساقَيْن، تنتظرُ ساعةَ المخاضِ».

أضفتُ هامشاً يجبُ أن يُضافَ في الصفحةِ الأخيرة:

«ولدتِ المجنونةُ الحُبلى عاصفةً

العاصفةُ اقتلعتِ المدينةَ».

نمتُ في بابِ مغارة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من تعبِ المسير.

صحوتُ، فوجدتُ نَسْراً على حَجَرٍ كبيرٍ يراقبُني

«هل مُتُّ؟ هل جاءَ يأكلُ جثّتي؟».

انتصبتُ لهربٍ لا رجاءَ فيه أمامَ جناحٍ، يسخرُ من السرعةِ والمسافات

فصارَ النَّسْرُ الأصلعُ رجلاً كاملاً، شَعْرُهُ ريشٌ.

«اِهْدَأْ» قال.

«أنتَ في بيتِي» قال.

«المعذرةَ،

لم أنتَهِكِ البيتَ

نِمْتُ بالبابِ وحسب» قلتُ.

أجلسَني جوارَهُ، ورحتُ أحاولُ فهمَ الوشومِ التي تُغطّي جِلْدَه

رآني، فعلّقَ: «لن تفهمَها حتّى تفهمَ القوى العنيدةَ التي نُحاكيها

لن تفهمَها ما لم تدخلِ الغيبوبةَ، لتُصلحَ أخطاءَ العالم».

دلفْنا المغارةَ، وفي أعماقِها، شاهدتُ جداريَّتهُ السرِّيَّةَ. رأيتُ مشهدَ صيدٍ مرسوماً بعظامِ الفرائسِ ملوَّناً بدمِها. خِفتُ من رسمِ المجزرةِ بالمجزرةِ، من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جَعْلِ الجريمةِ حيَّةً، فقال: «هكذا أصلّي للريحِ!».

سألتُ الرجلَ النَّسْرَ: «ما الريحُ؟»

أجابني: «الريحُ نحنُ ..

نحنُ الذين أضعْنا صورتَنا».

وبعد برهةٍ أضاف: «متاهةٌ تهيمُ فيها نظراتُ المخلوقاتِ إلى ما بعد موتِها، ودوَّامةٌ تَجذِبُ الأفواهَ، واحداً واحداً، منذُ انشقَّ الفمُ الأوَّلُ في الوجهِ الأوَّلِ، وحين يتقرَّرُ إطلاقُ سراحِهَا، ستقولُ الأفواهُ: لأنَّنا الريحُ، نعرفُ اللغاتِ كلَّها .. وتقولُ الأعينُ: لم نرَ غيرَ الريحِ .. رأينا كلَّ شيءٍ».

أشارَ إلى الجبالِ مِن حولِنا، وهو يقولُ إنَّ في كلِّ حَجَرٍ من حجارتِها صورةً، وعلى الجميعِ، بشراً وحيواناً، البحثُ عن وجوهِهِم هناك، ليعرفُوا المصائرَ المكتوبةَ. وهَتَفَ بسخريةٍ: «لكنَّ ذلك درساً، لن يتعلَّمَهُ أحدٌ قبلَ الطيورِ».

قال: «شاهدتُ وجهي، وعرفتُ ما لم أعرفْ عمَّا مضى، وعرفتُ ما سأعرِفُهُ عمَّا سيأتي حين يأتي. من الماضي، عرفتُ أُمِّي المُثقلَةَ بالعارِ. وَلَدَتْني على شكلِ عاصفةٍ، هَدَمَتْ مدينَتَهَا بعد الغزوِ مثلما يُجهِزُ الجنديُّ على صاحبِهِ الجريحِ جرحاً لا أملَ بشفائِهِ. وحين أتمَّتِ العاصفةُ تهديمَ المدينةِ، استقرَّتْ في هذا الكهفِ، فكنتُ، وكان مهدي، وسيكونُ قبري».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال: «أنا ابنُ الريحِ، كلُّ ما أفعلُهُ ملاحقتُها، ورغمَ أنَّني متأخِّرٌ عنها، لكنَّني غَنِمْتُ فضيلةَ الذهابِ، وها أنذا أزورُ القبائلَ في مضاربِها أو في قُراها، لأتلوَ عليهم الصلاةَ»:

قلتُ: «ما الصلاةُ، يا حكيمُ؟».

قال: «قلتُ لكَ قبلُ: غيبوبةٌ».

في كهفِهِ الذي قضيتُ أيَّامي فيه نائماً، حَلَمْتُ أنَّني النَّسرُ الحكيمُ، أقرأُ رموزَ الصخورِ، أرسمُ مجازري على جدرانِ الكهوفِ، أُقلِّدُ صوتَ الريحِ ورقصَهَا في صلاةٍ طويلةٍ:

«يا مدرسةَ الطيورِ، مَرْقَصَ الأشجارِ، حَلَبَاتِ الغيومِ، مُعسكراتِ الصوتِ والصدى، مستودعَ اللُّهَاثِ .. يا سؤالاً راودَ الناسَ، ولم يَحظَوا بجوابٍ عنهُ غيرَ العبورِ، وها هم يَجْرُون خلفَكِ في طُرُقٍ، مرَّةً تَعبُرينَها بأثرٍ، ومرَّةً تعبُرينَها لِمَحْوِهِ .. متى تقولين لهم إنَّكِ الجهاتُ كلُّها؟»

«نُولَدُ، لأنَّ هناك ريحاً

نموتُ، لأنَّ هناك ريحاً ..

الريحُ التي وُلِدَتْ مِن لا شيء، ومِن لا أحد،

لن تموتَ، لأنَّها تأكلُ نفسَها

وتشربُ نفسَها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتتنفَّسُ نفسَها ..

الريحُ تلك الريحُ دِينُنَا».

٥

أخيراً ها نحنُ هنا وجهاً لوجهِ

فيا ريحُ، إليكِ أسئلتِي:

لماذا تحملينَ الضوءَ والظلامَ، رسائلَ الماضي، شهواتِ النبات؟

لماذا ترسمين الخرائطَ، وتحرثين البحارَ، وتُكرِّمين الجبالَ دُونَ سِواها؟

لماذا تُوزِّعين الأدوارَ بين الموتِ والحياة؟

لماذا لا يَحكمُكِ عُمُرٌ؟ أين شهادةُ ميلادِ ريحِ الجنوبِ؟ وأين مِهَادُ الخماسين؟

لماذا لا تنتهين إلى المقابرِ؟ أين أضرحةُ النسائمِ والزوابعِ والعواصف؟

ويا ريحُ، مَنْ أنتِ؟ ماذا تبتغين؟

صفَّرتْ قليلاً

ثمَّ هبَّ الجوابُ زوابعَ:

«تعرفون المكانَ شكلاً وطَعْماً ورائحةً. تُدركون حدودَ البيوتِ، تشعرونَ مَلمَسَ الطُّرُقِ في الأقدامِ، لكنَّ الزمانَ لا تعرفونَهُ، ولا يعرفُكُم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنا مَنْ تُحرِّكُ الشمسَ شروقاً وغروباً،

أنا مَنْ تأمرُ الليلَ بالصعودِ والهبوط،

أنا أوَّلُ الساعاتِ وآخرُها،

ولهذا أريدُ تثبيتَ كلِّ ما حَدَثَ مكانَ الحدثِ، كلّ
ما جرى حيثُ جرى،

داخلَ طوابقِ الزمان،

لأرى العالمَ دفعةً واحدةً مُكرِّراً الأشياءَ

من أصغرِ الثواني إلى أطولِ الأيَّام

مثلما حَدَثَتْ تماماً

أريدُ أن أرى الوجودَ طوابقَ للزمان والمكان

أريد أن أجلوَ وجهَ الزمانِ في المكان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترجمةُ رسائلِ الحَجَر

١

مقدِّمة لمقدِّمة التُّرجُمَان

ما مِن أصلٍ لهذا الكتابِ، وما لدينا هنا ترجمةٌ لِمَا لم يكنْ كتاباً أو كتابةً. هي رسائلُ أمليَتْ صوراً على تُرجُمانٍ، نقلَها إلى لغةِ الكتابةِ، ثمَّ مات.

كتبَها على أوراقٍ صُنِعتْ لتحفظَ النصَّ حفظَ الحجارةِ للنقوش. ولنكنْ صريحين: تلك الأوراقُ ألواحٌ حَجَريَّةٌ، جرى تَلْيينها، ليغدوَ المكتوبُ عليها قابلاً للقراءةِ في اللغاتِ كلِّها، قديمِها وجديدِها، الحيَّةِ منها والميتة.

عَرَفَ التُّرجُمانُ حين ارتضى خوضَ التجربةِ أنَّ حياتَهُ ستكونُ الثمنَ، وما إن أنهى مقدِّمتَهُ حتَّى مضى إلى حيثُ يمضي الموتى، إلى المكانِ الذي يجعلُهُم واحداً، على اختلافِ أديانِهِم وأزمنتِهِم وبلادِهِم وألسنتِهِم؛ إلى العالم، لأنَّ هذا الذي يأتونَ منه هو العالمُ الآخر.

ولئلَّا يسألُ الفضوليُّون الذي سيفهمون من هذا ألَّا عقابَ للشرِّ والأشرارِ، أقولُ: العالمُ الذي أقصدُهُ، والذي سيعرفُهُ الفضوليُّ واللامكترثُ حتماً، هو عالمٌ يتأمَّلُ فيه الإنسانُ أفعالَهُ زمناً مديداً، وبناءً على ما يصلُ إليه سيختارُ، بالعدلِ الذي يُولَدُ فيه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاقبتَهُ المُثلى.

كلُّ مَنْ قرأ الكتابَ قرأ فيه قصَّةً أخرى، هي قصَّةُ حاملِهِ أوَّلاً. ولكي تظهرَ القصَّةُ الأصليَّةُ، على قارئِيها الانتظار، لأنَّ الكتابَ يُلاعِبُ أصحابَهُ، ليعرفَ أيَّ نوعٍ من الأيدي تلك التي تحملُهُ، وحين يُدركُ أنَّها يدٌ حكيمةٌ يمنحُها محتواه، لكنَّ المؤسفَ أنَّ مَنْ قرؤُوا حكاياتِهم، أغلقُوهُ فوراً، ولم يجدُوا من هَوْلِ ما عرفُوا فضولاً لمَعرفةِ المزيد.

بعدَ وصولِ الكتابِ إلى يدِ الراعي الفتى، حفيدِ الشيخِ الشهيد، ضاعَ مرَّةً أُخرى، ووقعَ مراراً في أيدي أولئك الذين يلهثُون لوَضْعِ تواقيعِهم الزائفةِ على أيِّ نصٍّ مجهولِ المؤلِّف، إلى أن قذَتْهُ إلى طريقِ حفيدةِ التُّرجُمان، لكي تنشرَهُ على الملأ، وتُنهيَ سيرتَهُ السرِّيَّة.

٢

مقدِّمة التُّرجُمان

هذه قصَّةُ تمثالٍ، ظنَّهُ الجميعُ متروكاً في المكانِ الذي أنجزَهُ فيه نحَّاتُه، دُونَ أن يفكِّرَ أحدٌ أنه انبجسَ كاملاً، وفي لحظةٍ مثل انبجاسِ الماءِ من حَجَر، لكنْ هذه المرَّةَ انبجسَ الحَجَرُ من حَجَرٍ، ليحكيَ، بالهيئةِ التي ظهرتْ فيها صورةُ جسمِهِ وشكلُها، قصَّتَهُ، فجاء حمقى ودقُّوا عند قدمَيْه

لوحةً نحاسيَّةً، تتحدَّثُ عن كاهنٍ سيظلُّ يُصلّي إلى الأبد، لولا مجيءُ حَمقى آخرين في عصرٍ لاحق، وجدُوا في صفحاتِ كتابٍ - اكتُشِفَ آنذاك، وعُدَّ سجلَّ تواريخِ الأزمنةِ القديمةِ الأكثرِ اكتمالاً - إشاراتٍ تصحُ عليه، فوضعُوا لوحةً نحاسيةً جديدةً، تتحدَّثُ عن ملكٍ، ملأ عاصمتَهُ بأنصابه، لإيمانِهِ أنه ربٌّ يُحيي المدينةَ بتماثيله. ثبَّتُوا القصَّةَ رغمَ أنهم لم يجدُوا ما يدلُّ على الملك، ولا على دولتِه، ولم يبالُوا أصلاً في أن واضعَ تلك التواريخِ لم يطأ هذه الأرض، وكلَّ ما دوَّنَهُ أخبارٌ وصلتْ بلادَهُ مع القوافل.

هذه هي قصَّتُهُ التي كتبَهَا بلغتِهِ الحَجَرية، بألفبائيَّتِها اللانهائية، ونشرَها في الجبالِ والوديانِ والسهولِ والبوادي، وتحتَ ماءِ الأنهرِ والبحور، مانحاً إيَّاها ألواناً وأشكالاً تُرى وتُسمَع، لكنَّنا بدلاً من أَخْذِها إلى الفَهْم، تركناها صرخاتٍ تعبرُ من أمامِنا ولا نراها.

بعد ذلك، صرْنا نعدُّها مصنوعةً بقوى غامضة، أصباغُها من مزجِ عفاريتِ الغابات، وملاسَتُها من صقلِ مُسُوخٍ، ظلَّتْ محكومةً بسُخرةٍ في العوالمِ الخفية.

ولكي تكتملَ العبثيةُ صرْنا نُسمِّي بعضَها ياقوتاً، ونَصِفُهُ للمسافرين؛ مَنْ يضعُهُ تحتَ لسانِهِ، لن

يصيبَهُ العطش. وسمَّينا بعضَها زُمُرُّدَاً، ورحْنا نتغنَّى به قائلين؛ قادرٌ على تفجير عيونِ الأفاعي، إن اقتربتْ من منازِلنا، ولهذا تُطرَدُ لعنةُ السُّمِّ ممَّنْ يحملونَهُ.

لأجلِ هذا ظهرَ أمامَنا تمثالاً، لنأتيَ إليه، ونلمسَهُ، لعلَّ أحداً منَّا يتجاوزُ فضولَ الزيارةِ إلى الاعتبارِ بأن الهيكلَ، الكتلةَ، الجسدَ .. تريدُ فتحَ حوارٍ مع عيونِنا غيرِ حوارِ الإعجاب.

ظهرَ تمثالاً، لكنَّ هذا ليسَ وجهَهُ، وذلك ليس جسدَهُ، إنَّما كلُّه على كلِّه لغةٌ، انبجستْ في هذا الموضعِ مُؤمِّلةً نفسَها أننا سوف نفهمُ بصورةِ الكتلة، بهيبَتِها، ببلاغتِها، ما لم نفهمْهُ من قبلُ بالكلماتِ المكتوبةِ على الحجارة.

لم يتقادمْ رغمَ مرورِ القرونِ، كونَهُ قادراً على تغييرِ قشرتِهِ. سَمَّوهُ أبا السنين. وتلك كادتْ تكونُ بدايةَ معرفةِ السرِّ، سرِّه، لولا تدخُّلُ باحثين في الآثارِ والتاريخِ والأنثروبولوجيا قالوا إن الاسمَ قادمٌ من رغبةِ نحَّاتِهِ في الوصولِ إلى الخلود، مُغلِقِين بذلك أبوابَ الاحتمالات، ومنها أن تمثالاً أوحى باسمِهِ لمَنْ سمَّاه.

لم يتقادمْ سوى من خيبةِ أملِه، فأرسلَ إليَّ الرجلَ النَّسر، الذي قالَ في تقديمِ نفسِهِ إنه الوحيدُ القادرُ على خَلْق اتِّصالٍ بين الكواكب، والتغلُّبِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على المسافاتِ بين الأرضِ والسماء، بين عالمَي الألفة والغَرَابة، فلأنَّ الكواكبَ حجارةٌ، ونحنُ أيضاً حجارةٌ، تنجحُ مراسلاتُ الرجالِ الطائرين أمثاله.

حكى الرجلُ النَّسْرُ حكايةَ أبي السنين. قالَ هو الموتُ الذي هو الأرضُ التي هي الحجارة. قالِ نَبَتَ تمثالاً مثلما نَبَتَ قبلُ جبلاً.

قالَ لي: «جئتُ لأعلِّمكَ، جئتُ. جئتُ لأجعلَكَ أكثرَ استبصاراً جئتُ». وقالَ: «لطالما تكلَّمَ الموتُ معكُم، ولطالما حِدْتُم عنه. ولطالما قالَ: لهم قلوبٌ، لهم عيونٌ، ولا يفقهون بها شيئاً».

عندما أدّى رسالتَهُ طار، وظلَّتْ كلماتُهُ الأخيرةُ تُصيبُني بالإغماء: «نحنُ حَجَرٌ، نحن ماءٌ. الحَجَرُ عظامُنا. الماءُ دماؤنا. لهذا يعيشُ الموتُ فينا، إلى أن نعيشَ فيه».

هذه مقدِّمتي مكتوبةً بكلماتٍ، أجزمُ بأنها نُحتَت داخلي نحتَ إزميلٍ، ولهذا أُشرفُ على طَيِّ صفحةِ حياتي مع طَيِّ آخرِ صفحاتِ الكتاب. لا مشكلة، ميِّتُ الغدِ يحملُ ميتَ اليوم. وعنّي، بعدما عرفتُ ما عرفتُ، لا أريدُكم أن تحملُوني لمكانٍ، دعُوني مُسجّى، حيثُ جاءت ساعَتِي. لا أريدُكم أن تحملُوني إلى قبرٍ حَجَريٍّ، لأن الميتَ يعرفُ طريقَه، ما أريدُهُ أن تقرؤوا الموتَ الذي لا يزالُ يتكلّم معكم حَجَراً حَجَراً.

٣

متونُ الرسائلِ المترجمةِ

١

لأنها ابنةُ الموتِ تَلِدُ الحجارةَ موتاً

فلا تظنُّوا أن الموتَ مجرَّدُ نهاية

واذكرُوا أن ولادَتَكُم جاءتْ من موت،

أعني من حَجَر ..

أوَّلُ بيضةٍ نزلتْ من جوفِ أوَّلِ كائنٍ، قرَّرَ التكاثرَ في الأرض

كانتْ رَحِمَاً حَجَرِياً

ظلَّ ينزلُ مع الفراخِ دهراً،

إلى يومٍ تثَبَّتَت الرَّحِمُ مكانها، وباتتْ قادرة على الحَمْلِ والإنجاب

وبذا صارَ لكم في الولادةِ مذهبان

صارَ لكُم رَحِمَان

واحدةٌ تأتي معكم

وواحدةٌ تأتي بكم

إحداهُما حَجَريّة

والأخرى فكرةٌ حَجَرية.

مثلكُم ميلادي رحلة

في البداية، سارتْ ذرَّاتُ الغبار

التي كانتْ شيئاً أو كائناً

في مسارٍ طويل

إلى أن اجتمعتْ، فتصلَّبَتْ، فتحجَّرَت

ثمَّ ولدتْ شيئاً أو كائناً

ولاحقاً غدا ذرَّاتِ غبارٍ

اجتمعتْ، فتصلَّبَتْ، فتحجَّرَت

فكنتُ من كلِّ شيء

وفي كلِّ شيء

وليس بمقدورِ أحدٍ أن يعرف

أينا جاءَ في الأوَّل

فكلُّنا أوَّل.

الشمسُ التي فوقَكُم،

ذلك الحَجَرُ الملتهب،

وهواءُ السماءِ شديدُ الصلابة

الذي يحملُ أحجاراً، تُسمُّونها نجوماً وكواكب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلُّها منِّي

وأنا منها

مبدؤُنا الحَجَري واحد.

أنتم حجارةٌ أيضاً

تُولَدُون من حَجَر، وتموتُون في آخر

وتقولون إنكم شيَّدْتُم صروحاً

وبنيتُم حضاراتٍ في مدائنِ الصخر

أو في ممالكَ أقوى من الصخر ..

كيف تجرؤُون على ذلك، والحَجَرُ منِّي أساساً؟

وتصاميمُ قصورِكُم ومشيِّداتِكُم مُحاكاةٌ للكواكب،

أي لصنعتي؟

بعدها تدَّعون امتلاكَ الأسرار.

ينامُ أنبياؤُكُم على حجارةٍ في البرِّيَّة

ويُشاهدون في مَنَامَاتِهم ملائكة

يَتلُون عليهِم تعاليمَ الحقيقة،

فيستيقظُون، ليبنُوا مكانَ الوسائدِ معابد

ويقولُون الجملةَ ذاتها:

«هنا مفتاحُ السماء».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السَّحَرَةُ الذين تهابُونَهم
يحدِّثون الغيبَ وكائناتِهِ
عبرَ خواتمَ تَصنعُ المعجزات
والخواتمُ كلُّها،
بمعدِنِها وفصوصِها،
من صلبي ..
تَرتدُون جلوداً
خُفَّتْ بحجارةٍ
بعدما عاشتْ من قبلُ حيواناتٍ
إلى أن قتلتُمُوها بحجارةٍ، شُحِذَتْ بحجارةٍ.
الحَجَرُ قاتلٌ وقتيلٌ
منزلٌ وسلاحٌ
وطنٌ ومَنفَى
والحجارةُ حياتُهَا موتُهَا
وموتُها حياتُها
ألم تروا كيف ينبعُ الماءُ من حَجَرٍ
ليسقيَ حجارةً، أماتَها العطشُ؟
الحجارةُ ماءٌ صلب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والماءُ حجارةٌ سائلة

صلابةٌ على هيئةِ سيولة

وسيولةٌ على هيئةِ صلابة

تسيلُ لمعاناً صلباً

وتتصلَّبُ سائلة.

الحُبُّ الذي تشترونَهُ بالقلائدِ والأساور

المنازلُ التي تسكنُونَها

ثمَّ تُبدِّلونَها بسُكنَى القبور

الأسلحةُ التي تحتَمُونَ بها

من أوَّلِ حَرْبَةٍ حملتُمُوها

إلى آخرِ مدفع

ليستْ سوى أحجار ..

والرَّحَى التي تُطعِمُكُم خُبزَكُم

والأواني والجِرَار

وكلُّ ما تأكلُون منه

وكلُّ ما تشربُون منه

ليس سوى أحجار ..

فلماذا إذاً تظنُّون أننا ضدَّان؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولماذا لا يُكمِلُ مصيرُنا جمعَنا

إلى أن ننتهيَ كتلةً واحدة

بعد الحياةِ التي اشتركْنا فيها

في كلِّ آنٍ؟

لشدّ ما قلتُم إني عدوٌّ مبين

أسلبُ الحياة

وأُفكِّكُ الروحَ عن جسدِها

رامياً كلّاً منهُما في اتِّجاهٍ

إلى عُزلةٍ تزدادُ قسوةً كلّ لحظةٍ.

إلى متى سيظلُّ ذاك التناقض

تكادُون تقدِّسون الموتَ، وتعبدُون الموتى

وفي الوقتِ ذاتِهِ تُطلقُون نواحاً وندباً

أقسى من ميتةِ الميت؟

إلى متى ستظلُّون تحلمُون بالخلود

أو على الأقلّ

إطالةِ الأمدِ ما أمكنتِ الإطالة

مع أنكُم تُعلنون ليلاً ونهاراً أنكُم فانُونَ؟

إليكُم إذاً كلماتي الأخيرة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا أنا بالعدوّ ولا الشرّ ..

إنما أنا سرُّكُم الذي بتُّم تعرفُونه، وتَدْعُون به جهلاً.

عرفتُمُوه في مصرَ القديمة،

والمصريُّون ظلُّوا يتحدَّثون معي

إلى أن ضاعَتِ المحادثات

حينما نَسَوا لغةَ الطقوسِ القديمة

ولأن القصَّةَ كلَّها تدورُ حولَ المعرفة

ولأن مَنْ يعرفُ سينجو

أُبشِّرُكُم بالخلاص ..

أُبشِّرُكُم بصفاءِ المعرفة

كلُّكُم خالدٌ

ما دامَ الكلُّ آيلاً حَجَراً في النهاية

فلا تجزَعُوا من التحوُّل

في رحلةٍ أبدية

محطَّاتُها أجسادٌ مؤقَّتة.

حتَّى أولئك الذين يَكنِزُون من الحجارةِ ذهباً وفضَّة

بوسعِهِم أن يصيرُوا ذهباً وفضَّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لستُ سرًّاً بعدَ الآن

منذُ جعلتُم القبورَ ممرَّات

للعبورِ إليّ

قلتُ لنفسي إنهم على الطريقِ الصواب

لكنكُم حرَّفتُم الاكتشافَ إلى هَلْوَسَات

عن الجحيمِ والفردوس

آملين أن تُصلِحُوا الدنيا

بالتخويفِ من الآخرة.

٢

«لماذا على الحجارةِ أن تحكيَ؟»

سيأتي مَنْ يقول.

«لأجلِ الحقيقةِ تحكي»

سأقولُ له.

«منذُ متى تتكلَّمُ الحقائق

هي تأتي، فنعرفُها لحظتئذٍ

لحظةَ يحلُّ علينا الخوف

ونستسلمُ للمصير»

سيقولُ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهذا ومن مثلِهِ أقول:

وُجِدَتِ القبورُ قبلَ العظام

ولكنكُم تأخَّرتُم في إدراكِ ذلك

كما لا تزالُون متأخِّرين جدّاً

في إدراكِ أن الرموزَ هي الحقيقةُ وغيابُها.

٣

لكي أظهرَ أمامكُم تمثالاً

توجَّبَ عليَّ العملُ دهراً

في جَمعِ ذرَّاتِ الغبارِ من أُمَّةٍ ميتةٍ

ثمَّ تقدَّمَ أشدُّكُم حُمقاً

ليصنَعُوا تاريخاً لِمَا ليس تاريخاً

ويُنشِئُوا سرداً عمَّا لم يحدث.

لا وجودَ لتماثيلَ إطلاقاً

تلك أشكالٌ، يجرِّبُها الموتُ، ليحكيَ معكم

كي لا تخافُوه

منذُ أغيَتْهُ الكتابةُ إليكُم.

لا وجودَ لنحتٍ

الحجارةُ ذاتُها تصنعُ تلك الوجوه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تبني الكتلَ التي تريد

وتُوهِمُكُم أنكم صانِعُوها.

لا وجودَ لتماثيل

وما تضعونَهُ في مدائِنِكُم

ليكونَ تمائمَ ضدَّ الموت

هو الموتُ ذاته.

لا وجودَ لنحت،

قلتُ لكُم من قبل،

في رسائلَ سابقةٍ:

كيف يكونُ ثمَّةَ نحت

وأصلُ الأزاميلِ معدِن

وأصلُ المعدِن حَجَر؟

كيف يكونُ هناك نحّاتون

وأصلُ الأيدي عَظْمٌ

وأصلُ العَظْمِ حَجَرٌ؟

٤

ها أنا محاطٌ بالسيَّاحِ المبتهجِين بالفُرجة

وبالمُحبَطِين الباحثين عن ملجأٍ للكآبة

أو للتخطيطِ للانتحار ..

أتمشَّى قليلاً مع الأفكارِ التي تدفعُ الناسَ للمشي

وكثيرون منهم يأتونَ بحثاً عن معنى حولَ الحجارةِ القديمة

دُونَ إدراكِهم أن المعنى هو الحجارةُ القديمةُ نفسُها.

أتمشَّى طيفاً

قربَ تمثالي

وأجمعُ أفكارَهُم المُتعَبة

من أرقِ الليلِ وكوابيسِه

أو من قلقِ سَعْيِ النهارِ دُونَ جدوى.

أجمعُ أحلاماً تشظَّتْ

ورغباتٍ تمزَّقتْ ذرَّاتٍ، تمزَّقتْ ذرَّاتٍ أُخرى.

أجمعُها، فأكبر

كأن الأفكارَ الميتةَ وجثثَ المشاعر

نطافٌ تُحبِّلُ الموت،

وكلَّما جُمِعَتْ نَمَتْ أطرافي الحَجَرية

نُمُوَّ أغصانِ الشجر.

أجمعُها، لكي يذهبَ ما ماتَ منهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وما ماتَ فيهم

إلى الموت ..

لكي يصبحَ ما يخافونَهُ ماضياً، وينسونَهُ

وينسونَ أفضالَ يدِ الموتِ على الحياةِ أيضاً.

كبرتُ كثيراً

فأرسلتِ السلطاتُ مَنْ يفحصُ حجارتي بالأشعَّة

ويأخذُ عيِّناتٍ منها إلى المختبرات.

وجاءَ مَنْ يُقارنُ وثائقَ قديمةً عنِّي

بما هو واقعُ الآن.

وجاءَ الإعلامُ يُثرثِر

ويروي أشياءَ، لم يقلْها أحدٌ.

لكنَّ ما راقَني

بين كلِّ ما حدث

كلماتٌ كتبَها شاعر

جاءَني من أقصى أقاصي الشرق،

من جهاتِ الحكمة

زارني وقارنَ صورتي في كتابٍ بين يدَيْه

بصورٍ لي في صحيفةِ البارحة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثمَّ كتبَ في دفترِ جيبٍ سطوراً

هزَّتْ أساسيَ الحَجَري.

قلتُ لنفسي

هؤلاء الشعراءُ قادرون على تلخيصِ ما لا يلُخَّص

فلغتُهم إشاراتٌ، تُصيبُ القلوب

والقلوبُ الذكيةُ رِاداراتٌ تصطادُ الغامضَ

ولولا نرجسيَّتُهم

لانتبهُوا والتقطُوا سرِّيَ كاملاً.

كتبَ الشاعر:

«لكثرةِ ما تأمَّلَ الأُفق

مَلأتْهُ تأمُّلاتُهُ بالغيومِ والجبال.

جلبَ غيوماً، وطردَها

رفعَ جبالاً، وأهالَها تراباً،

ولأجلِ ذلك، أبقى الأُفقُ التمثالَ ثابتاً

ليكونَ أُفقاً له.

أُفقُ التمثالِ، أُفقُنَا، أُفقيّ

أُفقُ الأُفقِ، التمثالُ، عموديّ ..

وبهذا جرى إصلاح أخطاءِ الجغرافيا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنَّ الأكيدَ أن الأُفقَ حَجَرٌ كريم

وهذا التمثالُ بعضٌ من الخيالات،

خيالاتِنا أو خيالاتِ الأُفق ذاتِهِ

وهي تتلامعُ عليه

وتتَّخذُ شكلاً، يليقُ بمضمونِها».

٥

لا أزالُ أجمعُ الأفكارَ الميتةَ وجثثَ المشاعر

ولا أزالُ أكبر

وفي العالمِ من خبري ضجَّة ..

كيف أُخبرُهم أنني أُمَّةٌ ميتة

أو أمم ميتة،

تكوَّنتُ ممَّنْ ذابُوا في حَجَرِ الأرض

دهوراً خلفَ دهور

ثمَّ التقتْ سوائلُهُم الثقيلة

التي تحملُ هُوِيَّاتِهم

وتحجَّرَتْ، فكنتُ.

أنا الآن حَجَر.

لكنني، قبلُ وبعدُ، مَنْ يُحجِّر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تروني تمثالاً هنا

وقبلَ ألفِ سنة، كنتُ معبدَاً في بلادِ العرب،

وقبلَها بأكثرَ من ثلاثةِ آلافِ سنة

كنتُ هَرَمَاً في مصر،

وقبلَ هذا وذاك

بما لا أدري كم

عشتُ جبلاً.

أنا الآن حَجَر

لكنني قبلُ وبعدُ

موت.

كلُّ ما فعلتُهُ محاولات

لدعوتِكُم، كي نكونَ جسداً واحداً.

انظروا،

لا يفهمُني أحدٌ مثلَ الطيور

تخرجُ، لتقضيَ واجبَ الزيارة

ثمَّ تأوي إليَّ ..

وبينما تنشغلُون بذَرْقِهَا فوقي

يحدثُ ما قالَهَا قُدامى مصرَ حرفيّاً؛

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموتى الطيِّبون

يستعيرُون أجسادَ الطيور

في زياراتِهم للحياة.

وحين لا يجدُون جدوى من ذلك

يعودون مسرعين إليَّ

لكي أُعيدَهُم إلى أنسجتي.

قلتُ لكم،

وسأقولُها مرَّةً أُخرى،

سوف نصبحُ جسداً واحداً

له حجمُ كوكب

ستدورُ الكواكبُ في فَلَكِه

إلى أن يأتيَ موعدُها الأخير

وتنضمَّ إليه .. إلينا.

٤

حاشيةٌ ضروريةٌ لحفيدةِ التُرجُمان

شاهدتُ مناماً، ثمَّ صحوتُ وعشتُهُ.

رأيتُ أنني أجري وأجدُ صَوْلَجَاناً ذهبيّاً مُلقى على التراب. وحين أتى وقتُ رياضةِ الجري، وجدتُ في طريقي صَوْلَجَاناً ذهبيّاً مُلقى على التراب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم أعرفْ هل يحدثُ لي ما يحدثُ الآن أم أنه يحدثُ في المنام؟!

ما حدثَ هو أنني حملتُ الصَّوْلَجَان، في المرَّتَيْن، فراحَ يلمعُ ويرتجُّ بين يدَيَّ القابضتَيْن عليه بخوف، وبالخوفِ ذاتِهِ ألقيتُهُ أرضاً متذكِّرةً قصصَ الكنوزِ التي قَتَلَتْ مَنْ عثرُوا عليها. لكنَّ الصَّوْلَجَانَ راحَ يَلمعُ ويرتجُّ أكثرَ على الأرض، بشكلٍ بدا فيه ذهبُهُ شفاهاً تتحدَّثُ اشتعالاً وانطفاءً. حملتُهُ ثانيةً مُحاوِلةً تجريبَ شعورِ ملكةٍ في يومِها الأوَّلِ على العرشِ، لأُهدِّئَ الفوضى في أنفاسي، فراحَ يهتزُّ بين يدَيَّ القابضتَيْن عليه، ويميلُ إلى جهةٍ معيَّنةٍ كإبرةِ بوصلةٍ، وحين فهمتُ أنه يقودُني إلى نقطةٍ يريدُها، سرتُ كَمَنْ يحملُ جهازاً للتعقُّب، وبعدَ خطواتٍ طائشة، يميناً ويساراً، يساراً ويميناً، وصلتُ إلى حيثُ عادَ إلى هدوئِه، ورغمَ ضوءِ النهارِ رأيتُ على سطحِه نجمةً، فعرفتُ من نظرةٍ إلى الأعلى لمَّا رأيتُني تحتَها تماماً أنها علامة. غرزتُهُ في الأرض، في النقطةِ التي ينبغي أن تكونَ فيها النجمة، فشعرتُ بجسمٍ تحته. إذاً بين يدَيَّ كنزٌ، هو مفتاحُ كنزٍ آخر. أزَلْتُ الحصى والترابَ وأوراقَ الأشجار، فإذا بكتابٍ قديم، اتَّخذَ شكلَ حَجَرٍ مربَّعٍ أوَّلَ الأمر، لكنَّهُ حين صارَ بين يدَيّ، اتَّخذَ شكلَ صحائفَ مضمومةٍ في مجلَّدٍ، وأوَّلُ ما قرأتُهُ فيه، على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصفحةِ الأولى، هو ما أكتبُهُ هنا الآن: «شاهدتُ مناماً، ثمَّ صحوتُ، وعشتُهُ».

بعدها راحَ الكتابُ يروي قصَّة حياتي، وحياةِ أهلي، وأهلِ أهلِهِم، بشكلٍ معكوس، إلى أن وصلَ إلى جَدِّي الأكبرِ الذي ارتضى الموتَ لأجلِ تحويلِ أسرارِهِ نصوصاً.

بقيتُ أيّاماً على ذلك، تهبطُ أمامي الرسائلُ واحدةً تلوَ أُخرى، بعدما ظلَّتْ قروناً طوالاً مكتوبةً على سطوحِ الحجارة، ومن ثمَّ، صارتْ تمثالاً، ثمَّ تماثيلَ، ولا جدوى من وصولِها لأحد.

في لحظاتِ الشكِّ، تساءلتُ عن معنى ذلكَ، ما دامت الطبابةُ ماضيةً إلى تطويلِ الأعمارِ أكثرَ من عشبةِ الخلودِ السومرية! وفكَّرتُ في نفسي عمَّا سيبقى من قوَّةِ الكهوف، تلك الحصونُ العتيقةُ ضدَّ الليلِ والشتاءِ ووحوشِهِما، بعدما باتت اليومَ قابلةً للإنارةِ والتدفئةِ بالكهرباء؟

قلتُ لعلَّ الحجارةَ أسنانٌ في فمِ الزمان، وككلِّ الأسنانِ سوف تتساقطُ في النهاية. لكنّ صفحاتِ الكتابِ الذي قَتَلَ صانعَهُ وقُرّاءَهُ ظلَّتْ تُحاوِرُني راويةً قصصاً من زمنِ اللاموت، عندما استطاعَ الناسُ استعادةَ شبابِهِم، بارتداء جِلْدٍ جديدٍ، إلى يومِ دخولِ عجوزٍ على أهلِهَا شابَّةً، ولمَّا قاموا لكي يطردُوها، ارتدتْ جِلْدَها القديمَ، كي يعرفُوها،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فبدأ من حينِهِ عملُ الموت. وروث لي خوفَ البشرِ الأوائلِ من فراغِ العالم، وخشيَتَهُم من موتِهِ من شدَّةِ الوحشة، وكذلك خوفَهُم من امتلائِه، والموتَ من الازدحامِ وفقدانَ المساحة، وكيف أنّ تلك المعضلاتِ وسواها أرغمتْ مؤلِّفي أسفارِ التكوين على تغييرِ آرائِهم حولَ ولادةِ المرأةِ كلّ أسبوعٍ إلى مرَّةٍ كلَّ سنة.

قذفتْني الصفحاتُ في لحظةٍ دخانيةٍ إلى مواجهةِ التمثالِ العظيم. وهناك رحتُ ألمسُهُ وأعانقُهُ، وكلَّما لمستُهُ سمعتُهُ، وكلَّما سمعتُهُ صدَّقتُهُ.

لا أدري كم بقيتُ هناك، إلَّا أنني منذُ عدتُ صوَّرتُ الكتابَ، ونشرتُهُ على مدوَّنتي الإلكترونية، لكي تقرؤوا ما يجبُ أن يُقرأ. فاعلمُوا أن كلَّ مَنْ يفتحُهُ منكُم سيراهُ يحكي سيرتَهُ، وكأن القارئَ كَتَبَهُ أو أملاهُ على قريب، ثمَّ حين تُروَى رسائلُ الموتِ سيكونُ عليكَ أن تقولَ كلاماً أخيراً، وتموت.

أمَّا عنِّي، فكلماتي الأخيرةُ هي اكتشافي في لحظاتي الأخيرة: «ما أُحبُّهُ في الحياةِ صنعَةُ الموتِ، فلولا غموضُهُ، لم يكنْ هناك ذكاءٌ أصلاً، منذُ لوَّثَ الحياةَ بسؤالِهِ، أرغمَها على أنْ تتكلَّمَ، على أنْ تُجيبَ، مرَّةً بالأساطير، مرَّةً بالأديان، ومرَّاتٍ بالفنونِ والعلوم. ما أكرهُهُ في الموتِ صنعتُهُ الحياةُ، بالتحديدِ حين عدَّتْهُ عقاباً. ثمَّ راحتْ تُلوِّحُ

لنا بتلك الأكذوبةِ الكبرى مثل عصا. وبذلك الخبثِ سَلَبَتْ منّي ومنكُم، كما غيرِنا من الكائنات، حقَّ الانحيازِ إلى الموت».

٥

حاشيةٌ على الحاشيةِ

نقشتُ على بابِ كهفي مقصّاً، فصارَ المقصُّ مفتاحاً للمكانِ والزمانِ معاً.

بالمقصِّ أُخفي مكاني، وبه أقصُّ الزمانَ الذي أريدُ الذهابَ إليه، وأُلصقُهُ بزماني، ثمَّ أفتحُ عينَيَّ في الآن الذي أبتغيه.

لا سِحْرَ هنا، ولا علومَ في هذا. إنها القوانينُ السرِّيَّةُ التي تحكمُ عبورَ الرجالِ الطائرين عبرَ الوقتِ والأجسامِ الصلبةِ والمَرئي.

الآن بعدَ انتهاء مهامِّي، أتركُ المقصَّ مفتوحَ النصلَيْن على جدارِ الكهف، بعد قَصِّهِ للزوائدِ الباقيةِ في زماني، واختصارِها إلى اللحظاتِ الأخيرةِ لموعدِ رحلتي، ولهذا سأكتبُ فوقَ جدرانِ الكهف، لأن الجدارياتِ هي الحواشي الوحيدةُ الممكنةُ لأيِّ رجلٍ نَسْر:

«الكتابُ الذي يبدو أنه انتهى لم يَنتهِ. سيظلُّ يروي قصَّتَهُ طائراً من قارئٍ إلى آخر، لا سيَّما بعدَ إتاحتِهِ على المنصَّاتِ الإلكترونية، والشائعُ اليومَ أن

يتركَ مَنْ يقرؤه تعليقا، تحتَ المنشورِ الرئيسِ، إلى أن غدا اسمُهُ السائرُ بين الناس: كتابَ الذاهبين.

أنا الرجلُ النَّسْرُ، الذاهبُ مثلَ كلِّ مَنْ ساهموا في نَشْرِ هذه الكلمات، أقولُ لكُم إن التمثالَ العظيمَ اختفى، والكلماتِ السرِّيَّةَ فوقَ الحجارةِ اختفت، والكتابَ الأصليَّ اختفى، ولن يتبقَّى منه غيرُ نُسَخِهِ المُحمَّلةِ على الشاشات، كي لا يدَّعي أحدٌ امتلاكَهُ، ويطالبَ سلطةً باسْمِ الموت، أو كي لا يسعى أحدٌ إلى سلبِهِ بالقوَّة. الكتابُ اختفى بعدَ أن قالَ للجميعِ ألَّا ضرورةَ للجسدِ، ما دامَ المعنى باقياً.

أنا الرجلُ النَّسْرُ، سوف أعبرُ إلى العالمِ الأبيض، حيْثُ تغيبُ الألوان، قبلَ المضيِّ النهائيِّ إلى النسيجِ الحَجَري .. أقولُ لكُم: سوف يبدأُ غداً اختفاءُ التماثيلِ كلِّها تباعاً، فاستعدُّوا للرحلة».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشّتاءُ وقتُ العلامة

إلى أمجد ناصر

١

«قابلتُ فيكَ أوَّلَ شيخوختي»

«قابلْتُ فيكَ آخرَ شبابي»

تفعلُ اللقاءاتُ ذلك دوماً

وتجعلُ البشرَ مرايا

ما دامتْ تحدُثُ في شتاءٍ قاسٍ

كأنه تعريفُ الزمن.

قلتُ كلاماً قلتَهُ من قبل

وقلْتَ كلاماً سأقولهُ فيما بعد.

لم يُعلِّقْ أحدٌ منَّا

حسبْنا أنَّا عرفْنا العلامة.

٢

بدويَّانِ يتسكَّعانِ في بردِ برلين، تحلو لهما استعادةُ حكمةٍ قديمةٍ عن وطنِ البدوِ الذي تصنعُهُ أقدامُهُم، فيضحكان باستهزاءٍ من أوطانِ البشرِ التي صارتْ محلّاتٍ برغر.

قلتَ: «انتهى البدوُ حين. هَزَمَتْ راياتُ الدُّولِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحديثةِ خفقانَ الريحِ في الخيام، وانتهوا حين أذَلَّتِ الحدودُ حُرِّيَّةَ التجوال».

قلتُ: «انتهى كذلك زمنُ الهائمين على وجوهِهِم وراءَ خلاص، أو الحالمين بمَأثَرةٍ، يصنعُها المرءُ بيدَيه، وهم يسعُون خلفَ علامةٍ، لاحث نُذُورُهَا».

العلامةُ ثانيةً؟! قالت نظرةُ استهجانكَ، فأثارت جرأتي: «لماذا نُصدِّقُ العلاماتِ؟».

«لأنها لا تكذبُ».

«أنسيتَ العلاماتِ الكاذبةَ التي نشأنا عليها؟:

لا تتركِ المقصَّ مفتوحاً، لكيلا تنهالَ المصائبُ على العائلة.

إيَّاكَ وتقليمَ أظافرِكَ ليلاً، فتَخرُجَ الجنَّ من تحتِها.

لا تتركِ الحذاءَ مقلوباً حتَّى لا يتوقَّفَ اللهُ عن النظرِ إلى البيت.

إن خرجتَ بِنِيَّةٍ، لا تعدْ حتَّى لو تذكَّرتَ إناءً لا يزالُ على النار،

لئلَّا يتلاشى التوفيق».

ضحكْنا

أضفتَ حَكَّةَ اليدِ الجالبةَ للزرق: «فقراءُ يُورِثُون وَهْماً لفقراءَ آخرين،

يعيشُون حياتَهم، يحكُّون الراحاتِ دُونَ جدوى».

ثمَّ استعدْتَ وجهَكَ الحازم: «كلُّها قصاصاتٌ من سِفْرٍ ضائعٍ، لو عثرْنا عليه، عرفْنا الحكايةَ كاملةً. خُذْ صلاتِ النَّسَبِ مثلاً، أقلَّها بين البشرِ والنبات، ستجدُ أحياناً قرابةً، تفوقُ القرابةَ بأخيكَ. العالمُ لا يمزح. القمرُ القادرُ على تحريكِ المياهِ في الكوكبِ ألَا يُحرِّكُ أجسادَنا؟ ألَا يُسبِّبُ حيضَ النساء؟ العالمُ لا يمزحُ ورسائلُهُ ينبغي فضُّها لمواجهةِ ما جاءَ فيها».

«كيف المواجهةُ، يا صاحبي؟».

«بالكتابة ..

ذلك تعزيمُنَا، وكلُّ نصٍّ يدَّعي مخاطبةَ قارئٍ من جنسِنا ليس سوى ردٍّ على ما تُبَيِّتُهُ المصائر».

شاهدتُ في الثلج نُدَافاً تخرجُ عن مسارِها المرسوم، وتمضي إلى اتِّجاهاتٍ أُخرى كرسائلَ تعرفُ وجهتَها.

جلسنا في البار.

مع استعادةِ الدفءِ، رحتَ تقول:

«ثمَّة حياةٌ وُضِعَتْ من قبلُ، لا يسعُنا اكتناهُ أسرارِها قبلَ أن تغدوَ النهايةُ وشيكةً، فنرى أننا آباؤنا وأُمَّهاتُنا، وآباءُ آبائِنا وأمَّهاتُ أمَّهاتِنا معاً. ما تفعلُهُ الأرحامُ من تجميعٍ لذاكرةِ تجاربِهم أقوى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من كلِّ محاولاتِ انشقاقِنا. وحين تُروِّضُ الأيَّامُ جموحَنا، سنرى الوجودَ بمنطقِ المكانِ الذي هربْنا منه، ونُحبُّ من الناسِ مَنْ يُذكِّرونَنا بالأهلِ الذين عصينَاهم».

«والمَنفَى؟».

«رحلةٌ تكتبُها أجسادُنا. فينا مَنْ يرونَهُ جائزةً، فيقتلون الماضي، وفينا مَنْ يَعدُّونَهُ عقاباً، فيُعدِمُون الحاضرَ: لا هو بدايةٌ ولا نهاية، لا نسيانٌ ولا ذاكرة، بمقدارِ كونِهِ إضافةَ عيونٍ إلى عيونِنا، وأيدٍ إلى أيادِينا، ليكونَ لنا أن نرى الخسارةَ، ونلمسَهَا، ليكونَ لنا حملُها بطاقةَ هُوِيَّة».

٣

في صحراءَ بيضاء،

في مواجهةِ غبارٍ يتقمَّصُ شخصيةَ السراب،

نشعرُ من طراوةِ الثلجِ من تحتِنا

أن أقدامَنا أخفافٌ ..

قلتُ: «كأننا جَمَلانِ»

فقلتَ: «جملانِ مَوردُهما الحِدَاء».

٤

عند ناصيةٍ ضربتْها شمسٌ مفاجِئةٌ، وجدْنا مالكَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بن الرَّيب مشغولاً، يَعُدُّ دنانيرَ غنائمِ يومِهِ، فعبرْنا، ولم يقطعْ طريقَنا بسيفِهِ.

بعد التفافةٍ في شارعٍ فرعيٍّ، لم نحتجْ فيها سوى نصفِ قرنٍ لنغادرَ الثلجَ مرَّةً أُخرى، وجدناهُ يَندُبُ نازفاً، وينادي علينا: «يا صاحبيَّ، ادفناني هنا».

قال مالكُ: «دَعُوا القبرَ في مستوى الأرضِ محاكياً لها، لا أريدُهُ ذا بسفحٍ كالجبال، سئمتُ الشِّعاب، كفاني من وعورتِها ما شقَّقَتْهُ من جِلْدي».

وقالَ: «احفرُوا التُّرابَ برفقٍ .. برفق، لا أريدُ النزولَ في أرضٍ جريحةٍ».

وقالَ: «تذكَّرتُ مَنْ يبكي عليَّ، فما وجدتُ سوى حقيبةِ ظَهْري»

عادَ الثلج

فقلتَ: «جَمَلانِ نحن ..

يُنيخُهُما البكاءُ».

٥

وسِرْنا في طُرُقاتٍ

نحصي وجوهاً نازفةً.

«أهذا دمٌ أم خداعٌ بصريٌّ؟»

سألتُكَ.

«نعم. دمٌ. لن يكشفَ أقنعةَ النازفين
غيرُ نازفين، تدفعُهُم فراسةٌ بدوية
ليروا في الوجوهِ وجوهاً خفيةً
وقَّعَ الموتُ اسمَهُ فوقَ جباهِها
قبلَ دهرٍ من مجيئِهِ»
أجبتَ.
«تلك العابرةُ التي تتلفَّتُ حَيْرَى
ربَّما تبدو شهرزادَ للوهلةِ الأولى،
رَكِّزْ، فَتَحْتَ القناعِ ملامحُ آنا كارنينا.
وذلك العدَّاءُ، ذو الملامح الشرقية،
جلجامش نادمٌ على التهامِ عشبةِ الخلود،
وكلُّ ما استطاعَهُ تلفيقُ نهايةِ الملحمة
ليأخذَ من الضياعِ ركضاً خلاصَهُ»
قلتَ كَمَنْ في لحظةِ كشفٍ.

٦

«احكِ لي عن الحُبِّ»
رجوتُكَ.
«رحلتُنا الصغيرةُ داخلَ الرحلةِ الكبرى

تعديلُنا الوحيدُ على مسارِها»

ثمَّ سكتَّ.

«والمرأةُ؟

ما المرأةُ؟

أهي ناقةُ اللهِ في الصحراء؟»

سألتُ.

«لعلَّها الصحراءُ نفسُها

لعلَّها الرحلةُ نفسُها!

نُحبُّ المرأةَ التي تأتي من مكانٍ نظنُّهُ شِعْراً

محمولةً على هودجٍ من كلام

كأنها المجاز.

كلَّما أجذنا التأويلَ غدا الحُبُّ استحقاقاً،

فاليائسون ليسوا مَنْ سقطوا من حسابِ الحُبِّ وحسب،

وإنما مَنْ أسقطُوا اللغةَ من حساباتِهم أيضاً.

الحُبُّ نجمُ الرحلةِ الطويلة

طريقتُنا في إختراعِ بوصلة

أسلوبُنا في تأجيلِ توقيعِ الموتِ على جباهِنا»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رميتَ الكلماتِ كالحجارة

وانتقلتَ من المشيِ إلى العَدْوِ.

٧

أمامَ واجهةٍ عكستْ صورتَيْنا

هتفتَ: «إننا الشَّخصُ نفسُهُ»

ثمَّ عدَّلتَ العبارةَ: «الشخصُ نفسُهُ في زمنَيْن».

ارتعدتَ أوَّلَ الأمر

ثمَّ استعدتَ لسانَكَ من ضياعِهِ:

«إننا شخصُنَا الآخرُ،

ذاتُنا الثَّانيةُ،

القرينُ».

نظرتَ إليَّ بكلِّ نظراتِ الحُبِّ التي اختزنتَها:

«أتعرفُ معنى ظهورِ القرين؟».

«لا ..»

قلتُ.

«لنعد إلى الخان»

أعدتَ للفندقِ اسمَهُ القديم

دُونَ وعيٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واستدرتَ.

رأيتُكَ تمشي حافياً

تحتَ الشمس

وعلى كتفَيْكَ عباءةٌ مُقصَّبةُ الأطراف

وعندَ الأُفق تصبحُ جَمَلاً.

٨

عبرتَ بالسرطانِ

بعد شتاءَيْن بالضبط

وتركتَني مَهوُوساً بقراءةِ العلاماتِ:

كلانا أخٌ أكبر، في عائلةٍ بدوية، بين تسعةِ بناتٍ وأبناء ..

كلانا من ريفٍ، تملؤهُ عشائرُ، تحيا على ذكرى زمنٍ بدويٍّ مفقود ..

كلانا أهدى الأبوَيْن وتسعتَهُما كتاباً من تأليفه ..

كلانا حطَّ في شَمَالِ الأرضِ مقذوفاً بإحدى براكينِ حروبِنا ..

الشتاءُ هو العلامة

الآن أفهمُ أننا نكبُرُ كلَّما مرَّ علينا الشتاء.

نشأنا في بيوتٍ تُحصي السنواتِ بالشتويات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وثُجلُ الذين مرَّث عليهم شتاءاث أكثر.

حتّى الجبالُ القريبةُ حملث أسماءَ أواخرِ العُمُر

لأنّ الثلوجَ الدائمةَ فوقَ هاماتِها شَيبٌ في أعينِ المحلِّيِّين.

تبدأ الكُتُبُ المدرسيَّةُ دوماً، في كلِّ صفٍّ،

بنصٍّ عن الشتاء،

أهي الحكمةُ كما تفهمُها بلادُ الشمس

أم أُحجيَّةٌ يُلاعِبُ الدفءُ فيها بناتِهِ وبنيه

ليُشاغلَهم عن تأجُّجِ العواطف؟

الآن، نحنُ المليئين بالشموس، نحيا في أيّامٍ، تخرجُ من مطبخِ الصقيع

لا فرقَ بين فجرٍ أو ظهيرة

فالصباحُ يطولُ قرناً

بما يكفي ليجعلَ الماضي كرةً زجاجيةً

أرى فيها رجلَيْن،

بعد شتاءاتٍ،

يُسمِّيَان أنفسَهُما جَمَلَيْن

يقفانِ أمامَ انعكاسِ صورتَيْهما على واجهةِ

في فترةِ الأعياد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيُقابلان وجودَهُما الفعليَّ المزدوج

في جسدَيْن منفصلَين.

في البداية،

يخافُ أحدُهُما رغمَ انتظارِهِ هذهِ اللحظة

كونهُ يعرفُ أن ظهورَ القرينِ نذيرُ الموت.

يمضيان إلى الوداع

فيقولُ الأوَّلُ لقرينِهِ:

ستحيا لأجلِ لقاءِ شخصِكَ الآخر،

يمكنُ أن يكونَ اثنَيْن أو أكثر،

كنْ سعيداً بذلك،

فشخصٌ واحدٌ في المرآة

أكذوبةٌ اختلقَها فتى أرعنُ».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استراحةُ موكبِ أيُّوب

هل جاءَ الضبابُ بهم أم جاؤوا بالضباب،

هؤلاء الذين يمشُون الهُوَيْنَى

خلفَ موكبٍ أميريٍّ،

فيغيبُ الجسرُ والنهر،

ولا يبقى واضحاً من مشهدِهِم غيرُ الضحك؟

يُنزلون أميرَهم من عربتِهِ محمولاً على الراحات

ويتركونَهُ لجمعٍ من خِلّانه

ثمَّ يتفرَّقون، ليفترشُوا الضفافَ ثنائيَّاتٍ تحكي وتضحك.

«مَنْ هؤلاء؟

لماذا توقَّفوا هنا؟»

سألتُ.

«قافلةُ المرضى وأمراضهم

وأميرُهم أيُّوب»

قال الضبابُ.

أرى سرطاناً يتدلّى من رأسِ أمجد ناصر وهو يفترشُ العشب، تاركاً إيَّاه يهوي قُبالتَهُ خيوطاً رماديَّةً، لا ملامحَ لها، لتحكيَ عن معنى العلامة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وارتسامِ المصيرِ قبلَ الولادةِ بأجيال، وكيف على المرءِ أن يحيا، ليكتبَ ما يزيلُ القناعَ عن وجهِ الأقدارِ اللاهي.

أسمعُ صوتَهُ القويَّ يعلو ويخفت، فيما تلك الحشرجاتُ التي احتَلَّتْ فمَهُ في الأيَّامِ الأخيرة، ها هي تصدرُ عن فمِ سرطانِهِ.

هناك سلٌّ منبثقٌ من صدرِ صبيَّةٍ أنسجةً حمراءَ. أعرفُها جيِّداً، هذه أمونةُ، جَدَّةُ جَدَّتي. أوصافُ هذا الصدر حكايةٌ عائليَّةٌ، رُوِيَتْ مراراً عن جَدَّةٍ، لم ترضعْ لبنَ أُمِّها.

أمَّا الأنسجةُ الحمراءُ، فتُقرفصُ أمامَها كحبيبٍ، يسابقُ الوقت، وأحلامُهُ تتمثَّل في تقليصِ المسافةِ بينهما.

هنالك كلٌّ وصاحبُه: القصورُ الكلويُّ، السُّكَّريُّ، التهابُ الكبد، الكوليرا، الجُذامُ، الطاعون .. ومن حولِ الجميعِ تتطايرُ فُقاعاتٌ صغيرةٌ من ضبابٍ، لا تنفجرُ، ولا تتلاشى. أسماؤُها واضحةٌ من وجوهِها:

الحُمَّى،

الأنفلوانزا،

الشقيقةُ،

الديسك،

الدوالي ..

«لا تبحثْ عنهُم في المشافي

لا تَلُمِ الأطبّاءَ والصيادلةَ والأدويةَ

لا تسألْ عن قبورِهِم

فما أبكاهُم وذَوَّبَ آمالَهم انتهى صداقةً

في قافلةٍ، لا هدفَ لها»

قال الضباب.

يُعيدون الأميرَ إلى عربتِه، ثمَّ يلتفُّون حولَها، ليمشُوا على خطواتِ أحصنتِها التي انتهت عليلةً، وها هي تجرُّ العرباتِ بمعونةٍ من أوبئتِها.

ينقشعُ الضباب

يَبينُ الجسر

وتظلُّ ضحكاتُ أيُّوبَ وخلَّانِه أصداء

تحدو بالموكب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قرابةُ الغيابِ

١

أسمعُهُ يضاحِكُ آخرين بين تلالٍ، تتقاذفُ صدى الضحك، فأدركُ أنه ضحكٌ قديم، فيما صوتُهُ لم يكفّ عن الدورانِ بين المرتفعات، إلّا كي تسمعَهُ الأذُن التي يريدُها.

ها أنذا أسمعُهُ، وحين أسمعُهُ أناديه، وحين أناديه يردُّ باسمي فوراً، لكنّ هذا الذي ينادي عليَّ الآن ليس صوتَهُ القديم.

هل يأكلُ الصدى جزءاً من نبرةِ الصوت أم لعلَّ أصْواتَ الغائبين تنزلُ غريبةً على مسامعِنا، لأن وقتَ الغيابِ ومسافاتِهِ يجعلان الأحرفَ أثقلَ وزناً، والكلماتِ أبطأَ ممَّا يجب؟

أراه مقبِلاً، فأركضُ نحوَهُ في زمنٍ سابق، وبين عناقٍ وآخرَ، أرى وجهَهُ أصغرَ من عُمُرِهِ عندَ الاعتقال، لكنَّ خَطَّيْن من الشيب يُلوِّنان صدغَيْه، يبدوان رسالةً، تقولُ لكلِّ مَنْ يهمُّهم أمرُ الغائب: لا تقبَلُوا توقُّفَ الزمنِ على وجهِ مَنْ تُحبُّون عندَ الاختفاء، ولا حتَّى عندَ الموت، فكما ينبغي أن نتخيَّلَ الغائبين يكبرون، ويتغضَّنون، علينا أن نتخيَّلَ أجدادَنا الذين بلغُوا من الموتِ قروناً، باتوا يتنافسُون أخيراً في مراتبِ الآلهة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على تلَّةٍ، لا أعرفُ كيف وصلتُها، أُجالسُهُ وأبكي من صوتِهِ الغريب، صوتِهِ المنهكِ مثل صدى، لم يسمعْهُ أحد. وأبكي من ملابسِهِ القديمةِ التي لا تزالُ تُلازِمُهُ كجِلْدِهِ، مختصرةً معنى الفقرِ في عبارة: ملبسٍ واحدٍ للنومِ والخروج. وأبكي لأن خيالي الذي طالما خلتُهُ رَحِمًا لصورِ الغُيَّابِ يتمزَّقُ من إجهاضِها في هذا اللقاء.

٢

يشربُ من زجاجةٍ

فأقولُ: «اسقِني من خمرِكَ»

يقولُ: «ليسَ خمراً

مجرَّدُ زجاجةٍ فارغة

التقطتُها وأنتِ تعانقينني

جمعتُ فيها

ما استطعتُ من قطراتِ دمعِكِ».

«ولماذا تشربُ الدمع؟».

«لعهديَ مع نفسي

على تذوُّق كلِّ ألمٍ، تسبَّبتُ فيه

وهذه حصَّتي الأولى منكِ».

«لماذا تكبرُ الآن أكثر؟

لماذا يزدادُ الشيب

في رأسِكَ ووجهِكَ؟

وما الذي يجعَلُ الغضون

تتكاثرُ بهذه السرعة؟

أبسببِ شُربِ الدمع؟».

«لا،

لأكونَ على صورتي حينما يُطلِقُون سراحي

لتريَ الآن ما سوف ترينَهُ لاحقاً

فبالأسى نُدرِّبُ القلوبَ على الفرح».

«إذاً لم تخرجْ بعد

وهذه المرتفعاتُ من نسجِ خيالي؟».

«لم أخرجْ،

لا أزالُ في زِنْزَانَتِي

وهذه التي تبدو لكِ مرتفعاتٍ

هي صرخاتي التي راكمَتْها الأيَّام

من حولي».

«هل تعني أنني عندَكَ

أنا التي تظنُّ أنكَ عندَها؟

وهل أنا في خيالِكَ

فيما أظنُّك أنتَ في خيالي؟».

«لسْنا أحداً

لا خيالاً ولا حقيقةً

ليكونَ واحدٌ منَّا عندَ الآخر.

لعلَّنا مجرَّدَ هذيانٍ نسيَ نفسَهُ

لشدَّةِ ما تطرَّفُ في الجنون

فصاغَ الحكاية

ليُعيدَ إنشاءَ نفسِهِ وحسب»

« توقَّفْ .. توقَّفْ ..

أعرفُ أنكَ ستقول

ما تقولُهُ دائماً

عند هذا الحَدِّ:

نحنُ الذين صنعْنا غياباً

طوالَ الوقت

لا بدَّ للغيابِ من صُنعِنا أيضاً».

٣

أسمعُهُ فأناديه، فيسمعُني ويناديني. وحين يأتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحاولُ أن يجعلَ الأشياءَ بلا معنى، لتغدوَ بلا ألم. قاعدتُهُ الوحيدةُ: امحُ المعانيَ، تمحُ الشقاءَ فيها.

لا أعرفُهُ. لم نكنْ يوماً عائلة. لا هو ابنِي، ولا حبيبِي، غيرَ أنَّني منذُ وصلتُ إلى هذه التلالِ، لم يعدْ هناك مِن أحدٍ يهمُّني سواه، وكأنه فكرَتيِ التي بعثُ حياتي للشيطانِ من أجلِها.

عرفتُ السرَّ، سرِّي وسرَّهُ أخيراً.

عرفتُ كيف تنشأُ صلاتِ القُربى بين الغائبين: أنا هو وكلُّ أحدٍ آخر، فالغائبون شخصٌ واحدٌ، يريدُ أن يغيبَ ومعهُ آلامُ الآخرين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتر الأبيض

١

«اسمي أوزيماندياس، ملكُ الملوك،

انظرْ إلى منجزاتي، أيُّها العظيم، وابتئسْ».

أصحو من نومةِ قرنٍ، مُردِّداً كلماتِ شاعرٍ التقى رحَّالةً، حكى له عن تمثالِ الملكِ المصريِّ الذي انتهى حُطاماً في القِفَار، فأجدُهُ جالساً على طرفِ سريري، مُردِّداً الكلماتِ نفسِها، برخامةِ الصوتِ الذي سمعتُهُ في المنامِ، فأهتفُ به: «والتر وايث؟».

انعقدَ لساني من بياضِ المكان

من وجهِهِ المِلْحِيِّ مثلَ سقفٍ من الجِصِّ مُوشِكٍ على التساقط

من صوتِهِ الأبيضِ كالصمت

من ردائِهِ الأبيضِ كجِلْدٍ

من عينَيْه البيضاوَيْن دُونَ بُؤْبُؤ

فهجمتُ مُمسِكاً الرداء

مُدارِياً حَيْرَتِي

بكلماتٍ، ليس لديَّ غيرُها:

«لا تقلْ لي

إنكَ جعلتَ منزلي مختبراً

لطبخِ مخدِّرِ الكريستال!».

دفعَني بهدوء:

«لسنا في منزلِكَ

والمغامرةُ القديمةُ انتهتْ كما شاهدتَ بعينَيكَ».

قلتُ:

«أين نحنُ، يا والتر؟».

لم يُبالِ.

وقفَ.

خَطَا ثلاثَ خطواتٍ

دخلَ الجدارَ الأبيضَ كَمَنْ يدخلُ في دُخانٍ.

نهضتُ محاوِلاً اللحاقَ به، فَصَدَّني الجدار.

٢

ليستْ غرفةً. هي علبةٌ بيضاء.

ليس سريراً. مجرَّدُ أرضيةٍ طريَّةٍ، عليها قشرةٌ، أخالُها غطاءً.

وأنا حشرةٌ تصغُرُ كلّ يوم.

ها هو يُطلُّ أخيراً من سطوعِ ضوءٍ أبيضَ، أزالَ فكرةَ السقف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل أنا في بئرٍ؟

مالَ الضوءُ على مهلِهِ من السقفِ إلى الجدار. مالَ بطيئاً، ثمَّ هوى بقوَّةٍ، فرأيتُ البئرَ تصيرُ نَفَقاً. لا أدري لماذا مشيتُ! لا أدري لماذا منذُ وطأتُ أرضَ هذه البئرِ الأفقيةِ غدتْ قدمَايَ بيضاوَيْن، .يدَاي بيضاوَيْن. توقَّفْتُ. هذه لحظةُ الحاجةِ إلى المرآة. لن أمضيَ دُونَ معرفةِ وجهي.

جاءَ هاتفٌ من الغيبِ يستحثُّني:

«هيَّا».

«مَنْ أنتَ؟ ماذا تريدُ؟»

هتفتُ بالغيب.

تقدَّمَ من سطوعِ البياض. رأيتُهُ. هذا والتر وايت بوجهِهِ البريءِ الذي يخفي الشيطانَ هايزنبيرغ. تراجعتُ، فلم أجدْ مسافةً خلفي. ابتسمَ مثلَ مَنْ يعرفُ مجرياتِ السيناريو.

«لن آتيَ معكَ» قلتُ،

«لا خيارَ لديكَ» قال،

«لا آمنُ صحبةَ مجرمٍ» قلتُ،

«كلُّنا مجرمون، يا فتى» قال.

تقدَّمَ وحملَني على كتفَيْه، وسارَ بي في نَفَقٍ

طويل.

«كلُّنا مجرمون، وعنّي لم أفعلْ سوى ما كنتَ تفعلُهُ قبلَ قليل، بفارقِ أنكَ داخلَ نَفَق، فيما نَفَقِي داخلي».

«لن أُصدِّقَكَ، يا والتر. لن تجدَ مَنْ يُصدِّقُ شخصاً يُصابُ بالسرطان، فيصيرُ سرطاناً، يطيحُ بالمدينة».

على كتفَيْنِ، رفعتْني إليهما يدان مصنوعتان من الجير، رأيتُ في صلعتِهِ شقوقاً، يخرجُ منها ضوءٌ أبيض، سارَ في نَفَقٍ، يكادُ لا ينتهي، سأعرفُ لاحقاً أنهُ بُني بتحدٍّ بين سَحَرَةٍ من حَجَرٍ يلمعُ بضوءٍ مريض.

على كتفَيْه، أشعرُ بثِقَلي، كلَّما صَمَتَ، وبخفَّتي كلَّما تكلَّمَ، فاختارَ السيرَ وهو يهذي:

«ما الذي يعنيه أنْ تمرضَ وتخسرَ حياةً، هي أصلاً أكوامٌ من الإخفاق؟ ما الذي يعنيه الدفاعُ عن العيشِ ضدَّ المرضِ غير مزيدٍ من الوقتِ في بئرِ السأمِ؟»

«كيمياءُ الجريمةِ معقَّدةٌ. من وجهةِ نظرِكُم ثمَّة مجرمٌ وضحية، ربَّما يغدوان قاتلاً وقتيلاً. لكنْ، لا للهُرَاء، هي شكلٌ آخرُ للقولِ إنّ الماءَ قابلٌ للطيرانِ كالغاز، أو قابلٌ للثباتِ بصلابةِ الصخور. لطالما أحببتُم أنذالاً، وهتفتُم لهم في الشوارع. القتلُ

تجربةُ قصوى في العيش. الرصاصةُ التي تُردِي محاكاةٌ لسرٍّ في التاريخِ، لا يعرفُهُ غيرُ الأباطرةِ حين يستحقُّون عروشَهُم. مَنْ قَتَلُوا بَنَوا عروشاً، أمَّا المقتولون، علىٰ الطُّرُقات حولَ القصر، فبعضُ مَنْ خضَّ الحياة، من ترهيبِها، كي تفتحَ أبوابَها الكبرى للرجلِ البسيطِ الذي ترونَهُ تافهاً رغمَ ذكائِهِ».

«غنَّيتُم للملوك، لأبطالٍ عظامٍ، متناسين أن الشرَّ فيهم كالشرِّ في أعدائِهِم، وكلُّ ما جرى أن هؤلاء استولَوا على المسرحِ، وأغرقوا شرورَهُم بالمدائح».

«أنا بطلٌ يقلبُ المعنى. أعرفُ أنكُم لن تُحبُّوا مدرِّسَ ثانويةٍ بقُدرةِ إمبراطور، فبرأيكُم عليه الرِّضا بالوظيفة، بالقناعةِ بتصحيحِ أوراقِ الطلَّاب، بالقبولِ بقروضِهِ. لا تُبالون إلَّا باللصوصِ الواضحين، فيما ترضَون ببعضِ التحويرِ في الأشكالِ وأمكنةِ العملِ لتجاهُلِ حقيقةِ أن اللصوصَ في الأكاديميا لا يختلفُون بشيءٍ عن حُثالاتِ المافيا. تفرحُون بلصٍّ مثل بروميثيوس، تُغنُّون لجبَّارٍ كالإسكندر، وبدلاً من وَضْعِ ملفَّاتِهم في المحاكمِ، تمضُون بهم إلى الأناشيدِ والمتاحف».

«أُحبُّ الشِّعرَ، كما يُحبُّ العصفورُ غناءَهُ، وبعدَ قليلٍ يهجمُ على الديدانِ والحلازين مثلما تهجمُ عصابةٌ على حَيٍّ، لتثبتَ لعصابةٍ أُخرى أن زمانَها انتهى. أقرأُ «أوراقَ العشب»، ثمَّ أذوِّبُ الجثثَ

بالأسيد. تلك طريقتِي في إدخالِ القبورِ إلى معادلةٍ أخرى، تلك لمسَتي في تحويلِ الموتِ الأبديِّ من صلابةِ حجارةٍ إلى سرِّ الفناءِ في تلاشي السوائلِ الرقيقة».

«لا يهمُّ إن كنتُ من صحراء نيومكسيكو أو مدينةِ التوائمِ الهندية، أو ضفافِ المتوسّط؛ ما يهمُّ أنني الذكاءُ القادرُ على فرضِ قوانينِهِ ضدَّ مسدَّساتِ الشرطة، وطائراتِ الجيوشِ وهُرَاءِ حُماةِ الدساتير. أنا مُخدِّرٌ يسري مفعولُهُ في كلِّ جسدٍ منذُ أنهيتُ التفاوضَ مع الحياةِ، واستثمرتُ وقتي في قتالِها».

أنزَلَني، وقالَ: «لن تحتاجَ دماءُ الفراعنة لتحظَى بذلك المصير .. فكلُّنا أوزيمانديس في النهاية».

مضى وهو يقول: «أهلاً بكَ في الحديقةِ البيضاء».

٣

الأبيضُ الممتدُّ من الأعلى إلى الأدنى

الذي في كلِّ شيء،

ليس اللونَ، بل غيابَهُ.

شمسٌ بيضاءُ فوقَ سماءٍ بيضاء

أشجارٌ بيضاءُ وسطَ عشبٍ أبيض

مقاعدُ بيض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليها شخوصٌ، يشعُّ منهم البياض.

العجوزُ هيكتور سلمنكا أبيض

على كُرسيِّهِ المُدَوْلَبِ الأبيض

يعزفُ على جرسِهِ الأبيضِ الصغيرِ موسيقى بيضاء.

«ما السرُّ؟»

سألتُ نفسي.

«حين تغيبُ الأصوات

لا تستعيدُها غيرُ آلةٍ، استُعمِلَت للقتل.

الجرسُ كالسكّينِ أو البندقيةِ

آخرُ خزّانِ أصوات»

قال الرجلُ النَّسْر

الذي لا أعرفُ ما الذي أتى به هنا.

قادَني من يدي

إلى أشجارٍ بعيدة

وأشارَ إلى المحامي:

«انظرْ إلى سول غودمان

يكتبُ مرافعتَهُ بحبرٍ أبيض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على ورقٍ أبيض

فلو حدثتْ معجزةٌ، ووَجَدَ قاعةَ محكمةٍ وقُضاة

لن يجدَ الكلماتِ، ليتلوَها».

شاهدْنا غوستافو الأنيق

بنصفِ وجه

ثمَّة بياضٌ طَبْشُوْرِيٌّ على النصفِ السليم

وبياضٌ يشعُّ من جُمْجَمَتِهِ من النصفِ المكشوف ..

شاهدناهُ يُنظِّفُ المكانَ النظيف

ويمسحُ المقاعدَ والطاولاتِ الممسوحة

قال الرجلُ النَّسْر:

«لا تظنُّهُ أحمق

غوستافو يعرفُ أنهُ ما من شيءٍ سوى الأبيض

الذي سيتلاشى قريباً،

كلُّ ما في الأمرِ أن التنظيفَ تسريعٌ لإيقاعِ العَدَم».

وبينما نسيرُ في الحديقة، قالَ الرجلُ النَّسْر:

«لا معنى لشيءٍ دُونَ لونِه

لا وجودُ لشيءٍ دُونَ لونِه».

سألتُهُ:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أتلكَ الغرفةُ لمَحْوِ الألوان؟».

قالَ:

«لم تكنْ موجودةً هناك

ولن تكونَ موجودةً هنا.

ما من ألوانٍ أصلاً

تلك خدعةٌ يلعبُها الضوءُ مع عيونِنا

وما نراهُ أحمر

ليس كذلك في عينَي القردِ أو السمكة».

شاهدْنا عصابةَ العمِّ جاكْ

«تَغيَّرَ النازيُّون

استبدلُوا صليبَهُم المعكوفَ برمزِ الطبابة

وها هُم الآن متعصِّبُون للمرضى

ضدَّ الأصحّاء» قالَ النَّسْر.

«هزمَ البياضُ الأيديولوجيا

لكنهُ لم يجدْ مكانَ التعصُّبِ، ليُنزِلَ به الهزيمة»

ضحكَ النَّسْرُ حتَّى اهتزَّتْ رياشهُ.

مَرَرْنا بأيُّوب الأمير

يروي لخلّانِهِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن الأمراضِ التي تستحقُّ التقدير
بدلاً من العيشِ مَرذولةً.
سمعتُهُ يقول:
«المرضُ حياةٌ داخلَ حياتِنا
خطؤُهُ الوحيدُ اختيارُ المكان
لكنهُ مثلُنا كلُّنا حين نصرخُ في ساعاتِ الغضب:
لماذا وُلِدْنا في المكانِ الخطأ؟».
قدَّمَ واحدٌ من صَحْبِهِ آخرَ:
«يا سيِّدي أيُّوب،
هذا صديقي السرطان».
هَبَّ الأميرُ، وعانقَهُ
ولَمْلَمَ أنفاسَهُ: «أخيراً إذاً!».
مضيْنا نجولُ الحديقة
والرجلُ النَّسْرُ يشيرُ ويُعلِّق:
«تلك المجنونةُ الحُبلَى، أُمِّي.
هناك الراعي الصغير
هنالك قرينتُكَ».
«ما دَوْرُ والتر وايت، أيُّها النَّسر؟»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألته.

«دَوْرَةٌ بسيطٌ

يعبرُ النَّفَقَ الأبيضَ بمَنْ يجبُ أن يكونُوا هنا

إنهُ المخدِّرُ الأبيض

لا بدَّ منه

لا سيَّما أنهُ لم يكنْ إلَّا فكرة»

أجابَ.

٤

غابُوا كلُّهم

امتصَّهُم البياض.

رأيتُهُ كيف يخفُّ فيهِم إلى أن يتلاشى

فيتلاشون.

تبخَّرَ المحامي قبلَ أوراقِهِ

تناقصَ غوستافو الأنيقُ حتَّى اختفى قبلَ عدَّةِ التنظيف.

أُدركُ في اللحظاتِ الأخيرة

كم في الأشياءِ من بياضٍ أكثرَ ممَّا في الكائنات

وكم يُطيلُ بقاءَها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلاشى الرجلُ النَّسرُ أمامي
وبعد ساعاتٍ، تلاشت رياشهُ.
وحدَهُ والتر ظلَّ صامتاً
فيما المكانُ اختفى.
شعرتُ برأسي يسقطُ ويتدحرجُ أمامي
وقبلَ آخرِ إغماضةٍ
رأيتُ جسمي بعينَي رأسي المقطوع
منتصباً كالتمثال
وعلى قدمَيْهِ كلمات
فسمعتُ والتر بأُذُنَي الرأسِ المقطوع
يقرؤُها:
«اسمي أوزيمانديسْ، ملكُ الملوك،
انظرْ إلى منجزاتي، أيُّها العظيم، وابتئسْ».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن المؤلف رائد وحش

كاتب وصحفي فلسطيني - سوري، من مواليد دمشق 1981، يقيم في ألمانيا. عمل محررًا في عدد من الصحف والمواقع الإلكترونية. صدر له في الشعر "لا أحد يحلم كأحد" 2008، و"عندما لم تقع الحرب" 2012، و"مشاة نلتقي.. مشاة نفترق" 2016، وفي النثر "قطعة ناقصة من سماء دمشق" 2015. ورواية "عام الجليد" 2019.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner